مقام الفرد في المجتمع الانساني

الخطبة السنوية في المدرسة الكلية لحضرة الاديب خليل افندي داود نابت ب ع

(تابع ما قبلهُ)

والتقليد من صفات الانسان الملازمة وهو واضح في كثير من الحيوان واشد ما هو عليهِ في البشر بين المتوحشين منهم. وهو في الانسان عامل قوي في تقدمهِ وارتقائهِ وقد شبه احد الكتبة التقليد بالامواج تمتد من نقطة واحدة والامر كذلك في البشر فقد يخترع احدهم شيئاً ولا فرق في كون المخترع مذهباً او طريقة او آلة او زيًّا فينقلهُ عنهُ غيرهُ وينقل عن هذا آخر ويستمر التقليد جاريًا هذا المجرى حتى يقف في سبيلهِ تقليد آخر ويبقى البشر على التقليد اذا كان داعيًا لسرورهم تجلبهُ لراحتهم وتقدمهم وينبذونهُ اذا لم يكن كذلك على نسب متباينة من الزمان. فتمدن العصر الحالي انما هو تمدن الرومان واليونان مقلدًا وجاريًا مجرى التقدم والنمو

وكما ان الامواج التي مصدرها قوي تتغلب على الامواج ذات المصدر الضعيف فالمقلدات القوية تتغلب على الضعيفة منها. خذوا لذلك مثالاً شيوع الاطعمة والمشروبات في الامم المختلفة فان بعض هذه تصير العمر و بعضها طويلهُ فالاسكوتلانديون يشربون الهوسكي والالمان يتعاطون البيرا والصينيون الافيون. ثم ان الاسبان يفضلون السيكارات والالمان القصبة والاميركان السيكار. ويلذ السوري التوابل من الاطعمة ويميل الاميركي والانكليزي الى اللحوم المطبوخة والبطاطس وتشتاق نفس الايطالي للمكرونه. والمتمدنون يفضلون ما دكن لونهُ من الثياب والمتوحشون يميلون للبرقش من الالوان وما زعى منها واعظم الامثلة التي حضرتني الزي او الموضة وساذكر شيئاً عنها

وقد شوهد في كل امة وقبيلة نزوع الى حالة خاصة تمهد ما يوجد من الاختلافات الجزئية بين افراد الامة او القبيل فيحدث بينهم صلات تدفعهم الى المماثلة في النطق واللغة والاشارات والتزاوج واعظم شاهد على صحة ذلك الولايات المتحدة بما تضم كل عام اليها من المهاجرين

ولا يفهم من هذا ان المقلدات كاملة وجوبًا فهي ايضاً خاضعة لناموسي الارتقاء وتنازع البقاء فما كان منها آيلاً لنفع البشر عاش طويلاً والاَّ فضي عليهِ . وضمَّ هذه المقلدات على نمط مخصوص هو سرُّ الاختراع اذ ليس الاختراع سوى ايجاد فكر جديد وعمل جديد حادث بضم افكار قديمة وشبيهها في العالم العضوي الجمع بين ذكر وانثى من نوع واحد من الحيوان وانتاج مولود يختلف عن الاثنين . فاصبح مقام الفرد تجاه المجتمع كما يأتي : يجتهد الفرد بمخترعاتهِ من آراء ومذاهب وآلات وصنائع وعلوم وانباء ومكتشفاتهِ من الحقائق والنواميس ان يستولي

على ألباب الجماعة فاذا تيسر لهُ ذلك تابعوهُ ونبذوا ما اعتادوهُ قديماً من العوائد وما كان لهم من الازياء وما لديهم من الصنائع والآراء التي يتمسكون بها تمسكاً شديداً وتأثير الجماعة على الفرد عكس ذلك والفرد مقاوم لهم سعى بادىء الامر حتى يتغلب عليهِ عامل كارثقائهِ بحيث يشعر بنفع التأثير واسهل الوسائل لترقيتهِ الى ذلك المقام انما هو التهذيب الحقيقي بتقوية قواهُ العاقلة والجسدية والادبية وفتح مخادع فكرهِ وغرس النواميس والحقائق فيها غرساً يكفل بنموها هناك وهذا الذي يدعو الى تأسيس المدارس الوافية بحاجة العمران. اقول الوافية بحاجة العمران لاني اسف ان ارى اكثير من مدارسنا لا يفعل ذلك بل بني بمطلب مديريها واصحابها او قد لا يبقى بمطلب احد بل يأتي ابن العرض ونتيجة الاتفاق . او قد يكون هذا العامل اهتمام الفرد بارضاء الجماعة كما وقع للولايات المتحدة واسبانيا في الحرب الاخيرة فان الدولتين ليستا من موقعات معهدة باريس سنة ست وخمسين وهي تقضي على الدول بعدم وضع يد احد المتحاربين على ما لرعية الآخر اذا كان في مركب اجنبي او خاص باحدى الدولتين ما لم يكن من الممنوعات المعروفة " بالكونترابندا " وقد كان بحق لاسبانيا والولايات المتحدة ان تخالفا تلك العهدة وكان الناس يتوقعون منهما المخالفة لكنهما لم تفعلا حرصاً على رأي الجمهور من الدول والعالم باسرهِ. وهذا اي الرأي العام عامل قوي في الفرد يمنعهُ عن اتيان امور ويدفعهُ الى فعل اخرى . او قد يكون الدافع تسليم الفرد الاعمى الناتج عن ضعف في قواهُ او عن احترام عظيم يحدوهُ الى التسليم دون بحث او تبصر في الامور

على ان الجماعة لا تقبل تأثير الفرد ما لم تكن مستعدة لذلك فالطب من اعظم بوكات التمدن الحالي ولكن ليذهب اللورد لستر زعيم اطباء انكلترا وجراحيها الى المتوحشين يمارس صناعتهُ بينهم فانهم يرفضون قبولهُ ولعلهم يقتلونهُ لكنهم متى آنسوا منهُ مقدرة على شفاء الامراض التي هي باعتبارهم عياء اقبلوا عليهِ محترزين لكنهم ينتقضون عليهِ اذا اخفق مسعاهُ في حادثة واحدة

وهكذا القول في المصلحين والشارعين والحكام والفلاسفة والمعلمين فتاريخ العمران مملوء باسماء الذين ذهبوا شهداء تعاليمهم لا لعدم صوابيتها بل لان القوم الذين سمعوها لم يكونوا قد بلغوا من الحضارة مبلغاً يؤهلهم لاقتبال تلك التعاليم والتسليم بها والعمل بموجبها

ولما كان اعظم واجبات الانسان الوقوف على اسرار الطبيعة ونواميسها حتى تطول حياتهُ وتزيد راحتهُ كان اعظم الناس فضلاً من يفتح عيون الجماعة والعالم اجمع الى نواميس الطبيعة التي نحيط بهم ويدربهم الى كيفية الجري بموجبها بحيث لا يتمرسون بها على غير هدى فينالهم اذى يحبون التخلص منهُ وبين هؤلاء الاطباء والفلاسفة على اختلاف انواعهم والمخترعون

ومعلو الادبيات والعقليات والعلوم والمؤلفون واصحاب الجرائد ونحوهم

ولا يخفى ما للوراثة من التأثير في الفرد لاسيما التأثير في الانتخاب الجنسي وقد ترجع ان الذكر يرث من والده كما ان الانثى ترث من والدتها صفات ينفرد بها الواحد دون الآخر وذلك واقع في كثير من الحيوان وليس هو اقل وضوحاً منهُ في الانسان وعليهِ مثّل القوم ان هذا الشبل من ذاك الاسد ولا يراد بهذا القول ان الذكر من الولد لا ينال شيئاً من صفات والدتهِ او ان الانثى منهُ لا تلمّ بشيء من صفات ابيها لكن الاكثر ما تقدم من الانفراد اذ ان التنوّع اكثرهُ في الذكور من الحيوان لما يحتاجون اليهِ من التخلق بما يقربهم من الانثى وينيلهم رضاها عنهم وميلها اليهم وما يحدث بينهم من النزاع توصلاً اليها وتحافظة عليها من ان يسلبهم اياها آخر

ومن اعظم الشواهد في تأثير الفرد في الجماعة الزي مرجع هذه التقاليد ويدخل عليهِ من العوارض ما يحولهُ الى وجهة دون اخرى

خذوا مثلاً برانيط النساء وكرافاتات الرجال فانها تكون عند تابعي الزي على نمط واحد وزي واحد في فصل واحد من السنة الواحدة فالذي يدفع الفريقين الى هذا الانتقاء وهل لافرادهما يد فيهِ . ولو كان الشائع استعمال آلة من آلات البخار في معامل مملكة لالفينا هنالك من الاسباب ما فيهِ اقناعنا من افضلية تلك الآلة وما لها من الميزة على غيرها مما يقتصد بها من القوة والجهد المشغل ولكن الامر ليس كذلك في البرانيط او ربطات الرقاب اذ ليس في شيوع زي بعد آخر اقتصاد من وجه ما ولا نستطيع رد شيوع زي معلوم الى الاحوال التي تحيط بالمرء فتكون كالحوادث التاريخية مجموع اسباب ينتج عنها نتائج لا بد من وقوعها رضي الانسان ام لم يرض كالثورة الفرنسية الشهيرة

بقي اذاً ان السبب هو الاحترام الذي يشعر بهِ الوضيع نحو الرفيع اذا قبلهُ هذا في الجاه او المال او القوة او المعرفة او في كل هذه او كان التفاضل مزعوماً لا حقيقياً

تذكرون شيوع هذا النوع من التحية في بيروت وهو رفع الذراع والقبض على اليد على ارتفاع العنق وهزها وانظروا في سببها . ان اميرة ويلس الخالية اصيبت منذ بضع سنوات بدمل في ابطها الايمن فلم تستطع ضم ذراعها الى جنبها ولهذا التزمت ان ترفع يدها في السلام كي لا تحتك الذراع بالابط فلما رأتها سيدات انكلترا تفعل ذلك تابعنها وشايعنها لما رسخ في نفوس الانكليز من احترام ملوكهم وافراد الاسرة المالكة فيهم ثم نقل الينا فتلقيناهُ بالترحاب الذي لعندناهُ من احترام الاجانب والاقرار لهم بالافضلية ألا ترى ان ذلك جعلنا نقلد الغربيين

في اعمالنا ومعاشرتنا ومخالطتنا وفي رياش بيوتنا وزينتنا . وللانتخاب الجنسي في الزي يد ألا ترى الفرق بين المرأة والرجل في الزينة والتبرج والبرنشة فهي تجذبه بجمالها وزينتها وهو لا يفعل ذلك بل يتسلط عليها بقوة ذراعه وسمو مداركه . وعندي انهُ مهما ارتفعت اصوات الخطباء على المنابر وكتب كتّاب الجرائد فلن يغير ذلك من عزم النساء في اتباع الزي شيئاً الاَّ ان يكون رفع ضرر فهذا قد يتمكنون من بلوغهِ مع انهُ متعسر كما في مسئلة المشد . وعدم نجاحهم عائد الى عدم اهتمام المرأة براي صاحباتها وجاراتها وكل من وقع نظرهُ عليها سواء عرفتهُ او لم تعرفهُ وقد غلب عليها هذا حتى صار في حكم الطبيعة . واني اطلب الى النساء ان لا يصغين الى نصيحة الرجال في ابطال الموضة بل يتبعنها فانها تزيد في جمالهن ولكن ليتقين الله في كل ما يعود بالضرر عليهن لان المحافظة على الحياة والنسل اهم من المحافظة على الجمال بمقدار ما تفضل الحياة الجمال

وقد كان البشر قديماً يظنون الانسان موضوع عناية الالهة وراس الخليقة وقطب الكون او محورهُ فكانت الشمس بحسب زعمهم تشرق لتنير عليهِ ولاجلهِ كان الندى يقع وكانت كواكب السماء تخدمهُ حتى وضعهُ بعض الامم القديمة في مصاف ابناء الالهة

اما العلم فيدلنا على ان الانسان ليس غاية وجود الكون ومركز حركتهِ ولكنهُ حيوان على سطح سيّار صغير هو لا شيء بالنسبة الى سائر الكواكب والشموس وقد كان للجاعات والامراض والحروب اليد الطولى في ترقية النوع البشري

وقد يخطىء البعض الغرض المقصود من هذه الاقوال فيظنونها تحاملاً على الدين وما هي من التحامل في شيء اذ ليس من غايتي التطبيق بين العلم والدين ولا اخال ذا فكر سليم يحاول ذلك فالآداب التي هي من تعاليم الاديان موضع نظر العلم والفلسفة وعند البعض ان التعاليم الادبية لا يخضع لها البشر ما لم تحدث فيهم هيبة واحتراماً للمصدر الذي صدرت عنهُ والعواطف التي تهيجها اوامر الدين من القوى التي ارتقت جداً في الانسان وهي ضعيفة في اكثر الحيوان فان جميع الناس يرتاحون لتلاوة اعمال شهم خاطر بحياتهِ او بمالهِ دفاعاً عن مبدإ شريف او غاية سامية او مات فداء عن بني نوعهِ

والعوامل العاملة الآن في العمران والفرد سيدوم عملها بزيادة في قوتها وتأثيرها حتى يبلغ العالم درجة يتضاءل فيها واجب المرء ونفعهُ ومنفعة العمران وتطبيق اعمال الفرد على نواميس الطبيعة والعمران فتتلاشى المصائب والمحن الاحزان وتعدم الجرائم و يسعى الانسان خير السعي لترقية قواهُ حتى يبلغ بها اسمى ما يستطاع وذلك غاية التمدن ومصير العمران